خمسة وعشرون عاماً .. بقايا صور وأفكار

على هامش المؤتمر الرابع والعشرين لاتحاد الجمعيات الإسلامية في مدريد (1)

نوال السباعي

كأني بها الآن قبل دقائق تلك الطائرة التي أقلتني من دمشق إلى مدريد ، نحو المجهول كانت تمضي بي في تلك الساعات من مساء أحد أيام السبت في أواخر أيام عام الثمانين ، خمسة وعشرون عاماً مضت منذ ذلك اليوم ، خمسة وعشرون عاماً كانت كذلك شطراً من العنوان الذي اختاره اتحاد الجمعيات الإسلامية في إسبانيا شعاراً لمؤتمره الذي عقد هذا الصيف ، انفتحت أمام ناظري كوّة متسعة من الذكريات التي أعيشها وألمسها بيدي ونفسي وفكري ، خمسة وعشرون عاماً من العيش مع وفي ظل العمل الإسلامي في إسبانيا ، هذا العمل الذي كان ودائماً المبرر الوحيد لاستمرار وجودي وحياتي .

ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي حضرت فيه لأول مرة مؤتمر الجمعية الإسلامية في مدريد ، أعداد كبيرة من الناس ، من المغرب ، من الجزائر ، من فلسطين ، من سورية ، إخوة وأخوات في الله عرفناهم وعشنا معهم ، بعضهم ما زالوا معنا في رحلة غربتنا وجهادنا ، آخرون رحلوا إلى بلادهم أو خلفناهم على دروب الحياة في شتى أنواع المحن ، شابت العوارض واللحى وبقيت القلوب تنبض بهذا العمل ، من أجله اجتمعنا وعليه نفترق ، وجوه وأسماء وأصوات ، نساء ورجال وأطفال ، شباب من الطلبة و لم تكن هنالك شابات ، لقد كانت كل النساء من الجيل الأول من الشابات المتزوجات اللاتي لم تتجاوز أكبرهن الثلاثين من عمرها ، ما زال صوت " أبو عدنان " يرن في أذني وهو يمنح جائزة للأخ " أبو عبدو " لفوزه بنتائج مسابقة في المعلومات الإسلامية ، ودهش " أبو عبدو " لأنه لم يكن من الذين شاركوا في تلك الجائزة ، ولكن الأعراف

في ذلك الزمان كانت تقضي بأن لا يعلن على الملأ اسم الأخت '' أم عبدو '' الفائزة الحقيقية بالجائزة! تغير ذلك الزمان ، وكان عدد الفتيات في هذا المؤتمر الخامس والعشرين كبيراً جداً ، أصبح للشابات أسماء يُنادَين بها ووجود وحضور قوي وعلى كل المسارات .

'' أبو عدنان '' و '' أبو عبدو '' كانا على رأس الذين ساهموا في تغيير ذلك الزمان ومنح المرأة المسلمة في إسبانيا صوتها ووجودها جنباً إلى جنب مع الاخوة في المسجد والمركز والمؤتمر والحياة .

خمسة وعشرون عاماً مرت منذ ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى المركز الإسلامي في '' غرناطة '' ، ذلك المسجد الصغير في بيت متواضع ، مكتبة ومطبخ ، ووجوه شابة فتية ، هاتف وإلى جانبه علبة لجمع التبرعات لمنكوبي أفغانستان ، خلعت خاتمي ووضعته في تلك العلبة ، وعاد إليّ خاتمي بعد أسبوعين بحجة أن هذه الأشياء لا تنفع ساعة جمع التبرعات ، عرف الإخوة أن الخاتم هو خاتمي لأنني كنت المرأة الوحيدة في ذلك الجمع الغرناطي ، عدت بعد عام فتبرعت بنفس الخاتم في علبة أخرى لمنكوبي الشيشان ، وعاد نفس الخاتم بعد عام كامل إليّ ، قيل لي انهم لا يعرفون ماذا يفعلون بخاتم من ذهب فهذه التبرعات تذهب إلى اللاجئين لشراء مساعدات غذائية وأدوية وأدوات مدرسية لأطفال المخيمات ، بعد أربعة أعوام عندما انتقلت الجمعية الإسلامية إلى مقرها الجديد '' مسجد عمر بن الخطاب '' في غرناطة عدت للتبرع بخاتمي عينه ودسسته في علبة جديدة تجمع فيها التبرعات لمنكوبي بلد آخر في مسلسل النكبات الإسلامية الدامية ، لكن الخاتم عاد إليّ .. لعل خاتمي ذاك كان ينتمي إلى قبيلة ذلك الغلام المؤمن كلما أرادوا الخلاص منه عاد إليهم يمشي!؟ .. الشيء الذي تغير اليوم في الجمعية الإسلامية في غرناطة بعد خمسة وعشرين عاماً ، هو أن عدد الأخوات هناك صار يناهز عدد الاخوة ، ولا شك أن خواتم كثيرة صار يجدها مسؤولي الجمعية في علب جمع التبرعات .

خمسة أشهر بعد وصولي إلى إسبانيا وقعت تلك الجريمة البشعة القذرة التي هزت أركان المسلمين في أوروبة ، الشهيدة '' بنان الطنطاوي '' ارتفعت – ولا أقول سقطت – لتكون دماؤها شاهداً على تلك الحقبة من الزمان ، ربما اليوم وبعد مرور خمسة وعشرين عاماً أصبحت دماء '' بنان الطنطاوي '' المبرر الوحيد

الذي نستطيع أن نقدمه لأبنائنا وهم يسائلوننا باستنكار عن سبب خروجنا من بلادنا في حينه ولماذا جئنا بهم إلى هذه الغربة ؟! ، كانت دماء تلك الشهيدة أول نسب جمعني مع الوالد والأستاذ الذي يسميه الناس '' عصام العطار '' ، ولكننا نسميه '' أبا أيمن '' ، هذا المعلم الذي لا يستخدم قاعات المدارس ليلقي دروسه ، الأب الذي لا يحتاج الواحد منا إلى شهادة ولادة تثبت نسبه إليه ، أحد القلائل جداً من الذين بقوا هناك خمسة وعشرين عاماً في تلك الزاوية من القلب التي يمكن للمرء أن يأوي إليها كلما ضاقت به الأيام وقلّ الإخوة والأعوان .

صلة '' أبا أيمن '' بجزء كبير من العمل الإسلامي في أوروبة كانت بمنزلة صلة الروح في هذه المراكز المبثوثة في مختلف العواصم الأوروبية ، هذا الهدوء في التعامل مع الأيام ، هذا الشموخ الصامت في وجه العواصف ، هذا الثبات العنيف في سكون أنيق ، هذه الأخلاق العظيمة في وجه طوفان امتداد الصحوة ، هذا الحبل المستمد من الصلة بالله ليمسك كل حبات العقد كيلا تنفرط وتضيع .

يهز المنابر من غير صياح ، ويهز النفوس بالبسمة الساكنة ، هذه الروح التي تنفث الحياة في كل ما حولها في أداءٍ مذهل ودونما ضجيج وصخب وهياج .

لأول مرة وقبل عشرين عاماً سمعت نعت '' الكاتبة الإسلامية '' من الأستاذ '' عصام العطار '' كما من الأستاذ '' نبيل شبيب '' عندما كنت في زيارة أحد المؤتمرات الإسلامية في مدينة كولونيا في ألمانيا ، ذلك التكريم كان شيئاً لا نعرفه ولم نعهده ، لم يكن تكريماً للمرأة المسلمة فحسب ، بل كان تكريماً لمهنة الكتابة والصحافة الإسلاميتين .

وسائل الشيخ في التربية عجيبة ، حرصه على كل موهبة وهمة وكلمة وحرقة كبير جداً إلى درجة تبنيه معظم هذه الأسماء التي أصبحت اليوم رنانة في الساحات الإعلامية العربية ، لكنه يوم تبناها لم تكن في حينه أكثر من مواهب تسير في هذا الدرب تحفها الرغبة في نصرة هذا الدين .. ما كان '' عصام العطار '' يجحد حق أحد ولا يحقر جهد أحد ولا ينسى فضل أحد مهما كان صغيراً أو مغموراً أو منسياً ، وهذا لعمري من أعظم أخلاق الوفاء التي رأيتها ، كان '' عصام العطار '' الرجل

الذي يعترف بالفضل حتى لأعدائه ، ويبرز الجهد حتى للمقلّ ، ويكرم حتى أولئك المدّعين رجاء أن يحملهم الإكرام على الصدق والإخلاص .

جاءنا الأستاذ " العطار " زائراً ، ليضرب لنا من نفسه المثل الرفيع في الثبات على الدرب ، ما الذي يمنع داعية من الاستمرار حتى آخر الشوط ؟ لا المرض ولا التعب ولا الأيام بقادرة على تغيير وقفة الحق مع الحق ، ولا أن تفتّ في عزيمة ماضية كهذه العزيمة ، جاءنا الأستاذ " أبا أيمن " بهدية ليست كالهدايا ، جاءنا بنفسه ، بجسده المنهك المتعب ليقول لنا أن النفوس إذا كانت كباراً فنيت في مرادها الأجساد ولكن هذا الفناء لا يمنع استمرار العطاء أبدا .

هذه الرسالة الدعوية الفعلية العملية في زمن الوهن والخوف والإرجاف والمرجفين ، كانت أعظم هدية قدمها الأستاذ عصام لمؤتمر اتحاد الجمعيات الإسلامية في إسبانيا ، هذه النفحة من هذه الروح الوثابة نحو الأمام ، نحو الأمل ، نحو الغد ، نحو وعد الله الذي لا يخلف وعده .

مساكين أولئك الذين لم يروا في هذه الزيارة إلا ما تراه الأبصار الكليلة ، لأنها زيارة تحتاج إلى البصائر العظيمة تكتشف هذا الدرس البالغ في زمن قلّت فيه الدروس والوعاظ .

كل شاب وشابة في هذا المؤتمر أصيب بالذهول وهو يستمع إلى هذا الشيخ الذي جاء ليقول لهم بأن رسالة الإسلام العظيم لا يجب أن نقف عن تبليغها بسبب من حادثات الأيام وما تحمله على المستوى الشخصي من آلام وبلاآت أو ما حملّته من أحداث مزلزلة في أوروبة .

" العربي الكشاط " أحد تلاميذ هذا الأستاذ ، وأحد أساتذة الجيل في أوروبة ، جاءنا من باريس من مسجد الدعوة ، يهزنا يوقظنا يذكرنا بالواجب العظيم في أعناقنا ، هذا الرجل يحمل في عينيه رسالة ورسالة أخرى حملتها كلماته ، لكن أعظم الرسائل على الإطلاق كانت تلك التي نتعلمها في سلوك هؤلاء الرجال ، هذه الرسائل تصبح شديدة الأهمية والخطورة في زمن المحنة ، ونحن إنما نعيش اليوم زمن محن .

" العربي الكشاط " لا يلقي على الناس محاضرة ، ولا يمّلهم بكلام معاد مكرور ، كل ما يقوله العربي الكشاط جديد مشوق عجيب يستند بفضل الله ومنه إلى علم غزير وتجربة واعية وموهبة عظيمة .

عرفت هذا الأستاذ الكبير قبل خمسة عشر عاماً تقريباً في مؤتمر آخر من مؤتمرات اتحاد الجمعيات الإسلامية فذهلت بما عرفته وسمعته ، الكشاط لا يتكلم إلى الناس .. إنه يمتزج بأعصابهم وأدمغتهم ، يدخل قلوبهم ، ينتشر في خلاياهم لأنه رجل يريد أن يهز الأمة ولا تهتز الأمم إلا بهزّ النفوس هزاً عنيفا.

يُضحك ويبكي يثير ويسكن يغضب ويرضي ، يقوم ويقعد ويمثل ويتحرك وكأنه قائد أوركسترا ، يتحدث تارة بالفرنسية وأخرى بالشلحة البربرية وثالثة بالإسبانية المكسرة .. وكل ذلك لجذب الانتباه وتفريغ النفوس لإعادة شحنها بالفكرة التي هو رسولها .

كنت أريد أن أكتب هذا عن " العربي الكشاط " منذ اليوم الأول الذي حضرت له فيه تلك المحاضرة التي ما زلت أذكر كلماتها وبالحرف حتى اليوم ، ولكنني خشيت أن أكون من المدّاحين ، فأصبحت اليوم على يقين من أن إنزال الناس منازلها هو من أخلاق هذا الدين .

موقفان شهدتهما في هذا المؤتمر للعربي الكشاط هما درسان بليغان في رفيع الأخلاق التي تصل بالناس إلى هذه المنازل العظيمة في القلوب ، صبره وحلمه وصفحه بل إكرامه لمن أغاظه وأساء بعض الأدب معه ، وموقف آخر مشهود في اجتماع له مع مجموعة من الشباب من " تجمع الشباب المسلم في مدريد " ، حين لم يجدوا مكاناً للجلوس فيه ، جلس " الكشاط " أرضاً في إحدى ردحات سلم المسجد ودعاهم إلى الجلوس معه ليلتقي بهم في ذلك المكان وليبلغهم رسالة الإسلام الذي يرفض العنف والاعتداء على الأبرياء ، ويسلمهم أمانة الدعوة التي يدخر الله لها أهلها من كل جيل يتسلمون الأمانة ليمضي هذا الركب إلى حيث وعد الله .

هذا التواضع الجمّ غير المعهود بين غالبية من نعرف من الدعاة ، هذا الصبر العظيم على المكاره وإيذاء الآخرين ، هذه الأخلاق كانت أعظم هدية جاءنا بها ذاك الأستاذ وهذا التلميذ ، كلاهما حلقة في هذه السلسة الضخمة التي تمتد بمفاتيح الحب لتفتح القلوب والعقول والنفوس ، في زمن القهر هذا الذي كانت فيه هاتان الزيارتان إلى إسبانيا قمراً مضيئاً هادياً في ليل لن يطول .

– يتبع إن شاء الله –